مكتبة
محمد بن ابراهيم الحاوة

٢٠١/٦٣
٩٦٢٨

كلمة تقديم
لرسالة ثورة العصر

كان لويس الرابع عشر — ملك فرنسا — يُلقب بالملك الشمسى ؛ لأنه انفرد بالإشراق فى سماء القارة الأوربية كما تنفرد الشمس بالإشراق فى سماء الدنيا .

وكان يحرص على هذا الانفراد ولا يتورع عن ذريعة — رفيعة أو وضيعة — يتذرع بها لإقصاء النظراء والأكفاء عن كبد السماء ، فكان — وهو حامى الكثلكة — لا يحجم عن تشجيع الثوار على دولة النمسا من أتباع الكنيسة البروتستانتية فى بلاد المجر ، لأن تشجيع الثورة فى تلك الدولة يضعضع أركانها ويقصى عن أوج السماء فى القارة الأوربية شعاعاً آخر يوشك أن يطغى من المشرق على شعاع باريس .

وجرت تقاليد الملك بعده على هذه الوتيرة حتى آذنت شمس باريس بالأفول عند أواسط القرن التاسع عشر ، فكان لويس السادس عشر يجرى على منهاجه ويشجع الثورة الأمريكية على الدولة البريطانية ولا يحسب حساباً لأثر هذا التشجيع بين رعاياه الأمريكيين ، لأنه كان لا يعرف للثورة من أثر غير إضعاف السلطان الذى تخرج عليه .

58109
1961

ولم تكن هذه الخطة مستغربة فى رأى الساسة الدهاة أو الساسة العمليين الواقعيين ، بل كانت خطة تقليدية من أقدم عصور التاريخ ، إذ كانت الثورات جميعاً خروجاً على السلطان يضعفه ويزيد فى قوة نظرائه وخصومه ، ولم يكن مفهوماً من الثورات جميعاً أنها حركة مبادئ أو حركة عقائد تسرى من أمة إلى امة وتزعزع السلطان فى كل بلد ولا تنحصر فى نطاقها المحدود — نطاق الدولة التى تنفجر فيها وتهدد المسيطرين عليها .

فلم تكن خطة لويس الرابع عشر وخليفته لويس السادس عشر مستغربة ، ولم تكن كذلك خطأ فى التفكير والتقدير ، وظلت صواباً مألوفاً إلى ما بعد مصرع الملك الأخير الذى جرى عليها وذهب مع غيره فى عداد ضحاياها ، فعلم الملوك والساسة منذ القرن التاسع عشر أن الثورة سلاح ذو حدين يصاب به السلطان المستبد الذى يبتلى به ويصاب به السلطان المستبد الذى يشهره أو يشجعه فى الخفاء .

كان الداهية النمسوى — مترنيخ — قطب السياسة الجديدة التى فهمت الثورة بهذا المعنى ، وبلغ من إيمانه بسياسته أنه كان يرى أن تأييد سلطان آل عثمان أولى به من تأييد ثوار اليونان ، لأن الثورة فى ذلك العصر أصبحت فكرة تسرى من أمة إلى أمة ومن دولة إلى دولة ، ولم

رقم 58109

تبق كما كانت من قبل حركة مادية تنحصر فى حدودها كما تنحصر أحداث الحريق والغرق وما إليها .

* * *

على أن مترنيخ الداهية لا يعدو أن يكون تلميذاً يتهجى الأبجدية فى علم الثورة كما تمخضت عنه دراسات المتفرغين له خلال مائة سنة منذ عهد الحلف الشرعى الذى عقده مترنيخ بين ملوك القارة الأوربية . فقد توفر على دراسة الثورات فى العصر الحديث أناس من المختصين بها جمعوا بين النظر فى مقارنات التاريخ والنظر فى أسرار السياسة والنظر فى أطوار الشعوب وأطوار قادتها والنظر فى علم النفس المطبق على الجماعات والمطبق على الآحاد ، مع ما يحيط بهذه الدراسات جميعاً من أحوال الثروة الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية على مختلف مناحيها . فخلص لهم من ذلك كله علم مستقل للثورة يتفرغ له الباحث مدى حياته ويكاد لا يستقصيه .

بل خلص لهم فى الحقيقة علمان للثورة لا علم واحد : خلص لهم علم وسائل الثورة وتنظيم حركاتها ، وعلم طبيعة الثورة وتحليل دواعيها وأنواعها .

وليس من عملنا فى مقدمة هذه الرسالة أن نلم بوسائل الثورة وتنظيم حركاتها ، ولا نعتقد مع هذا أن علم الثورة من هذه الناحية حديث كل الحداثة أو أنه من مبدعات القرن العشرين دون ما تقدمه من القرون

المذكورة فى التاريخ ، فلعله فى جملته فرع من علم الحرب كما عرفه القادة العسكريون أو السياسيون من عدة قرون . إذ كان هؤلاء القادة لا يغفلون عن إثارة الشغب واستطلاع بواطن الضعف و بث الجواسيس والأرصاد أو الأعوان الذين عُرفوا فى العصر الحديث باسم الطوابير الخامسة ، وهذه الوسائل التى اتخذها القادة العسكريون والسياسيون قديما فى بلاد الأعداء قلما تختلف عن وسائل تدبير الثورات وتنظيم حركاتها ، إلا كما تختلف الوسائل الغابرة والوسائل العصرية فى جميع الأمور .

ليس من عملنا أن نلم بعلم الثورة من هذه الناحية ، وليس موضوع الرسالة التى نكتب عنها هذه المقدمة من موضوعات البحث فى هذه الناحية من الثورة أو من الثورات على اختلافها ، ولكنها رسالة عنى مؤلفها بثورة العصر وطبيعتها وتحليل دواعيها ، فإذا اتسع المقام فى مقدمتها للكلام عن الآراء المستحدثة فى هذا الموضوع فإنما يتسع للكلام على طبيعة الثورات والثائرين كما يقتضيه التمهيد لثورة العصر أو ثورة زماننا الحاضر على وجه التحديد .

ما هى الثورة ؟

ما هى دواعيها ؟

من هم الثائرون طوائف مجتمعين أو آحاداً متفرقين ؟

هل الثورة دفعة من دوافع الصحة أو نوبة من نوبات المرض ؟ وهل هى انفجار بركان لا يدرى ما يصنع أو هى عملية جراحية يائسة يشترك فيها الاختيار والاضطرار ؟ وهل هى على العلات خير مطلوب أو هى شر لابد منه ولا حيلة فيه ؟

وما هى دواعى الثورة ؟ هل هى مقدمات تجرى مطردة مع طبائع الأمور أو هى فلتة من فلتات المفاجأة التى تطرأ على سبيل الاستثناء ؟

ومن هم الثائرون ؟ هل هم المحرومون أو هم طلاب السطوة والمنافسة على القوة ؟ هل هم الخياليون المثاليون أو هم المصروعون الفاشلون ؟ هل هم المؤمنون أو هم المنكرون أو هم الخالقون لإيمان جديد فى موضع الإيمان القديم ؟

فى التاريخ القديم والحديث ثورات تجيب عن هذه الأسئلة تارة بالنفى وتارة بالإيجاب وتارة بين بين على شك وتردد بين الطرفين .

ولكن الصفة الواحدة التى تتردد فى جميع الثورات هى صفة التنافر بين حالتين لا تتفقان ، ومهما يكن الثائر مجدوداً أو محروماً فلابد من هذه الصفة الواحدة لحسبانه من زمرة الثائرين ، ولا بد أن يكون بينه و بين البيئة التى يثور عليها نفور لا يقبل التوفيق ، وقد كان « لافييت » الثائر المشهور نبيلا من الطبقة العليا ولكنه كان فاشلاً بمقاييسها وكانت هى بغيضة إليه

بمقاييسه ، وكانت طائفة التجار على رأس الثورة الأمريكية ولكنها كانت تسخط على أوضاع التجارة والزراعة كما فرضتها الدولة الحاكمة سخطاً أشد من سخط المحرومين الذين ينازعونهم الأرزاق .

* * *

والقرن العشرون — عصرنا هذا — يسمى العصر الثائر كما يسمى عصر الثورات ولا يبالغ من يسميه بهذا الإسم أو بذاك ، إلا إذا أراد أن نفهم من هذه التسمية أن القرون الأولى خلت من ثوراتها الكبرى والصغرى أو أن القرن العشرين قد أبدع اليوم ضروباً من الثورة لم يكن لها نظير بالأمس .

فالواقع أن القرون الغابرة لم تخل من ثورة يذكرها التاريخ فى عهد من عهودها ، ونرجع القهقرى من القرن الماضى فنرى أمامنا ثورة الصناعة الكبرى تسبقها ثورة العقليين ، والحرية الفكرية تسبقها الثورات الفرنسية والأمريكية والإنجليزية ، وتسبقها أو تتخللها ثورات الإصلاح الدينى وثورات الملوك والرعايا معاً على سلطان الكنيسة ، وهذا عدا الثورات القومية والوطنية وعدا حروب الدول التى كانت فى بعض مظاهرها ضرباً من الثورات لأنها لم تخل من تمرد على سلطان مكروه أو غير مشروع فى عرف تلك العصور .

أما أن القرن العشرين لم يبدع نوعاً جديداً من الثورة لم يكن له

نظير فيما مضى فسوف يبدو لنا من عرض أطوار الثورة فى القرن العشرين على أضواء المباحث الحديثة التى أشرنا إليها فى مستهل هذه المقدمة .

فالثورات الوطنية قد عُرفت من قبل فى صورة أخرى هى صورة الثورات القومية أو ثورات العصبية والسلالة ، كما حدث فى ثورات الأمم على دولة الأكاسرة ودولة القياصرة الرومان والبيزنطيين .

والثورات الفكرية قد وجدت حيث وجدت فى القرون الغابرة عقيدة جديدة أو حضارة مختلفة ، وثورات العدد نفسها — وهى أخص الثورات بالقرن العشرين — قد عُرفت منذ فجر التاريخ كلما تكاثر عدد المظلومين فى بقعة من الأرض وتأتّى لهم أن يشهروا السلاح أو يرفضوا الطاعة ويتمردوا على السخرة والاستعباد .

لا جديد تحت الشمس فى ميدان الثورات كغيرها من ميادين الحياة العامة إذا قصدنا بالجديد أنه مخالف لكل ما تقدمه فى كل سبب وكل نتيجة .

ولكن القرن العشرين مع هذا يتميز « بخصوصية » فى هذا الباب لا تضارعه فيها القرون الخالية ، فما هى تلك الخصوصية التى نتبينها على أضواء المباحث الحديثة فى « علم الثورات » ؟

هى خصوصية تنحصر فى كلمة واحدة هى كلمه « العدد » .

فالثورات فى القرن العشرين أكثر عدداً من ثورات القرون المتقدمة .

والثورات فى هذا القرن تتغلب بكثرة العدد فى معظم الأحوال .

وفيما عدا الثورات القومية وثورات التحرير التى تتفق فيها كلمة الأمم بجميع طبقاتها تنظر إلى الوسيلة التى تتغلب بها الثورات الأخرى فلا نرى لها وسيلة أقوى من الوسيلة العددية أو وسيلة الكمية بغير مزية .

ولنا أن نقول أن كل ثورة غير ثورات الأمم الوطنية فى القرن العشرين كان قوامها العدد الكثير فى وجه العدد القليل من الطبقات الحاكمة أو الطبقات العليا .

وقد يتضح الأمر لنا بشىء من التقسيم يميز الثورات الوطنية من ثورات العدد والكثرة فى الأمة الواحدة .

فالثورات الوطنية التى تشترك فيها الأمة بجميع طبقاتها قسم لايختلط بغيره ، ولا يمكن أن يكون قوامه مجرد كثرة العدد فى الثائرين ، لأن الثائرين من أبناء الأمم المغلوبة ربما كانوا أقل عدداً من أبناء الدول الغالبة وأقل سلاحاً وأقل مالاً وأقل عدة فى جميع الوسائل التى تحسب بالكثرة العددية .

أما القسم الآخر من الثورات فلعلنا نميزه بعض التمييز إذا عرفنا له

صفة غير صفة العدد وأطلقنا عليه اسم الثورات الأخلاقية .

لماذا نسميها بالأخلاقية ولا نكتفى بإطلاق وصف الكثرة العددية عليها ؟

نسميها باسم غير الكثرة العدديه لأن الكثرة العددية تميز الأشياء بالأرقام ولا تميزها بالحقائق والمعانى الجوهرية .

ونسميها بالأخلاقية لأن ثورة العدد الكثير من الجماهير تؤثر فعلا فى أخلاق المجتمع الذى تحدث فيه ، لأن الجماهير ظلت من أقدم الأزمنة تنقاد فى حياتها العامة لتوجيهات الطبقات العليا والوسطى ، ولم تزل منذ كان الاجتماع الإنسانى تابعة لآداب العرف التى تدين بها تلك الطبقات ، فإذا خرجت على هذا العرف تغيرت قواعد السلوك ومقاييس الأخلاق فى المجتمع كله ، وتغيرت معها أصول المعاملات والمجاملات ، ويحدث كثيراً أن الطبقات التابعة تخرج على العرف القائم ولا تأتى بعرف يخلفه وتنتظم عليه العلاقات بين الناس بدلاً منه ، ولا يزال التغيير سلبياً يبطل أخلاقاً مرعية ولا يأتى بأخلاق إيجابية تتعارف عليها الأمة بأسرها ، فليس فى تسمية الثورات العددية بالثورات الأخلاقية مخالفة للحقيقة الواقعة ، لأن تأثير هذه الثورات فى الأخلاق أمر واقع لابد منه مقصوداً أو غير مقصود .

* * *

والدراسات التى تناولت ثورة القرن العشرين من هذه الناحية لا نحصرها لتعددها وتعدد أبوابها .

وكلها يتناول ثورة القرن العشرين عامة ولا يخص بالبحث ثورة بلد واحد ولا حالة واحدة ، ومنها ما يتناول هذا البحث من وجهة نظر علمية نفسانية ، ومنها ما يتناوله من وجهة نظر دينية وجدانية ، ومنها ما يتناوله من وجهة نظر إحصائية تعتمد على دلالة المقارنة وتعليل أسبابها ونترك ما عدا ذلك لما يتكشف عنه الغد من الإحصاءات أو المقارنات .

وليس فى استطاعتنا أن نحصرها .

وليس فى استطاعتنا كذلك أن نعبرها بغير إشارة إلى أنماط منها كأنها معالم الطريق فى آفاقها الشاسعة .

ويبدو لنا أننا نصنع شيئاً خيراً من لا شىء إذا أشرنا فى هذا السياق إلى ثلاثة مراجع مشهورة فى موضوع ثورة القرن العشرين ، ونحسبها قد اشتهرت بحق بين دراسات هذا الموضوع فى نطاقه الواسع ، وبخاصة فيما نراه شرطاً أساسياً من شروط البحث فيه وفى كل موضوع جلل من قبيله ، وهو شرط الاستقلال والتجرد من الأهواء التى يثيرها كل كلام يتعلق بالثورات .

تلك المراجع هى كتاب تشريح الثورة لمؤلفه الأستاذ

كرين برنتون[١] أستاذ التاريخ بجامعة هارفارد .

وكتاب « فى عصر الثورة » لمؤلفه الدكتور سيريل جاريت مطران يورك[٢] .

وكتاب « ثمن الثورة » لمؤلفه الأستاذ بورجان أستاذ علم السياسة بجامعة كامبردج[٣] .

ومن كل مرجع من هذه المراجع يخرج القارىء بحكم على الثورة يحصرها فى حدودها و يفرق بين ما هو أصيل فيها وما هو حشو عارض يطرأ عليها كما يطرأ على غيرها ، ثم يتيسح له أن يعالجها معالجة « التصفية » والإنصاف .

واسم الكتاب الأول « تشريح الثورة » يمثل للقارىء قدرة المؤلف على ضبط العبارة وضبط المقصد والنتيجة . فإن المؤلف يتخذ من الثورة فى هذا الكتاب جسما حياً يشرحه ليعرف ما فيه من العلل الواقعة كما يعرف ما فيه من قابلية الصحة والعلة كلما تعرض لأسباب هذه أو أسباب تلك ، ودراساته للثورات تبتدىء من الثورة الإنجليزية وتصل إلى الثورة الروسيه وتنظر إلى العوامل الاجتماعية والعوامل الفكرية والعوامل

---

(1) anatomy of Revolution by Crane Brinton
(2) In an age of Revolution by Dr. Cyril Garbette.
(3) The Price of Revolution by profeser Borgan

الاقتصادية فى كل ثورة من هذه الثورات لتعطيها نصيبها من المشاركة فيها وتفرق بين العوامل التى هى من قبيل المقاومة النافعة التى تطرد المرض من البدن القوى وبين العوامل التى هى من قبيل الاستسلام للمرض والعجز عن احتيال الحيل لاتقائه ومداواته .

وتسأل . ما هى نتيجة تشريح الثورة ؟

فاسأل أيضاً : ما هى نتيجة تشريح الجسم من أجسام الإنسان أو الحيوان ؟

إن نتيجته هى العلم بقابليات الداء والدواء ، والعلم بمعنى « الحمى » فى جميع الأجسام ، ومنها ما يكون معناه غلبة البرء والشفاء وما يكون معناه غلبة الموت والانحلال .

ومن تشريح الثورات جميعاً نستطيع أن نقول عن كل ثورة إنها دفعة تتخطى السدود .

فإذا شبهنا هذه الدفعة بدفعة الماء علمنا أنها تتخطى السدود فى حالتين : إحداهما أن يكون الماء تياراً جارفاً يمضى فى طريقه لأنه أقوى من السد الذى يحجزه ، والحالة الأخرى أن يكون السد قد تخرب وتصدع لطول عهده ووهن بنائه فهو لا يمسك الماء عن الجريان حيث وجد مجراه .

وفى هذه الحالة لا حاجة إلى البحث عن صفة خاصة فى الماء ،

ولايلزم أن يكون الماء ثائراً أو جانحاً ليمضى وراء السد المعترض فى طريقه .

وكذلك الجماعات الثائرة لا تحتاج إلى صفة خاصة ولا إلى البحث عن أمزجة الثورة فيها إذا كانت تأبى الاستقرار وتمضى فى طريقها كلما تصدعت السدود التى تمسكها وتقرها فى موضعها .

أما إذا بحثنا عن المزاج الثائر المطبوع على اقتحام السدود فلا بد له من لازمة لا تفارقه وهى أنه يأبى الاستقرار ولا يصير على الملاءمة بينه و بين البيئة التى يأوى إليها ، وربما كان سوء التوفيق بينه و بين تلك البيئة مردوداً إلى الثائر نفسه لعجزه عن فهم حقائق الأمور وقصوره عن مجاراتها مع تقلب أحوالها ودواعيها ، وربما كان سوء التوفيق مردوداً إلى البيئة العامة لعجزها عن استيعاب جميع أفرادها وتنويع المجالات التى تلائم كلاً منهم وتفتح له باب النجاح فى العمل الذى هو قادر عليه .

إلا أننا نكلف العقل شططاً إذا أردنا منه أن يجزم بأن هذا الإنسان يشترك فى الثورات حتماً لزاماً وأن هذا الإنسان يحجم عنها حتما لزاماً على حسب الطبيعة المركبة فى هذا وذاك . فإن الرجل قد يكون خيالياً مثالياً ثم يحجم عن الاشتراك فى الثورة لأنه يائس من عقباها مطبوع على العزلة والانطواء ، وقد يكون الرجل عملياً واقعياً بارد الطبع ساخراً من الأمثلة العليا والأحلام الخيالية ولكنه يشترك فى الثورة و يتقدم صفوفها لأنه يوازن بين الكفتين و يحسب حساب الكسب والخسارة فيرى

أن الصفقة الرابحة مع الثورة وأن الصفقة الخاسرة مع النظام الذى تصدع وآذن بالزوال .

* * *

ونتظر فى حقائق الثورة العصرية مع الدكتور سيريل جاريت فنحن مواجهون الثورة معه من وجهة نظر أخرى وهى وجهة النظر الدينية ، إلا أنها وجهة نظر العالم المحقق الذى يريد أن يعرف الحقيقة لنفسه قبل تعريفها لغيره بأسلوب الدعوة والموعظة .

وتاريخ الثورة العصرية عنده يبدأ من تاريخ الثورة على الدين .

وتاريخ الثورة على الدين عنده يبدأ من تاريخ الثورة على الإنسان ، وقد ثار الإنسان على الإنسان يوم صغر فى نظره و بلغ الكون عنده غاية الكبر والاتساع .

وليست علامات الثورة عند العالم المطران مقصورة على المسائل الوجدانية ومسائل الاعتقاد والنظر إلى الحياة الباقية . بل هى — أكثر ما تكون — مستمدة من دلالة المكنات والصناعات والألعاب الرياضية ووسائل اللهو وتزجية الفراغ ، ولهذه العلامات فى بحثه شواهد من الاشتغال بسبق الكلاب وكرة القدم لا تقل عن شواهدها من مذاهب الفلسفة والنظريات العلمية .

ويقرر العالم المطران أن الثورة بدأت يوم بدأ الانتقال من اليقين إلى التساؤل ، ويوم شك القادة المتبوعون فى أنفسهم قبل أن يشك فيهم الأتباع المقلدون .

وليس العالم المطران بالمتفائل ولكنه كذلك ليس بالمتشائم . وأيا كان باعث التفاءل أو التشاءم عنده فهو باعث متردد لا يدعونا إلى النفخ فى الأبواق والقرع على الطبول .

ويعتقد العالم المطران أن الجيل المتوسط فى السن يحمل أخطر الأعراض فى الثورة العصرية ، فمن كان بين الأربعين والستين فهو أضيع الناس أملا فى تجديد الثقة بالانسان وبالحياة ، ومن كان دون الثلاثين من ذوى الحس والفكر فهو الذى يشعر بالحاجة إلى الثقة ويملك القدرة الحيوية على خلقها مع الزمن ، ولعله سيخلقها خاصة مستقلة فى مبدأ الأمر ثم يخلقها عامة جامعة كلما تجمعت البواعث وتلاقى الباحثون عن الثقة على مزدحم الطريق .

ويملى للعالم المطران فى رجائه أنه يؤمن بأن الديمقراطية نظام معيشة وليست بالآراء السياسية وحسب ، وعادات المعيشة هى الكفيلة لها بالرجحان عند المقارنة بينها وبين نظم المعيشة التى تخالقها ولا تعنى غناءها إلى زمن طويل .

* * *

والكتاب الثالث — ثمن الثورة — لا يستوفى البحث من جميع أطرافه كما استوفاه الكتابان الآخران ، ولكنه يشتمل على أشتات متفرقة غنية بالنقائض والمفارقات الكامنة فى طبيعة الموضوع من شتى جهاته ، و بعضها طريف غير مسبوق .

فالناس يتكلمون عن رواد الاستعمار وعن الثوار المطبوعين كأنهما طرفان نقيضان هذا إلى أقصى اليمين وذاك إلى أقصى الشمال .

إلا أن المؤلف يلمس فيهما مشابه متقاربة كأنهما طائفة واحدة من الخلق فى تركيبها ومزاجها ، و يرى أن كثيراً من رواد الاستعمار كانوا أناساً نافرين فى بيئاتهم قد تعذر التوفيق بينهم و بينها فأرسلتهم هذه البيئات إلى خارجها تخلصاً منهم كى تحتمل المستعمرات شذوذهم وغطرستهم وتنتفع أوطانهم بالجانب النافع من كفاياتهم وعبقر ياتهم ، فكأنما كان الاستعمار على هذا الاعتبار استغلالا للمزاج الثورى فى الطرف الآخر من الثورات وهو طرف الاستبداد والنظام .

و بين لويس الرابع عشر ونابليون الأول فجوة واسعة فى قواعد الحكم التى يستندان إليها . إذ كان ملك لويس الربع عشر يقوم على الحق الإلهى أو على صدور الحكم من الأعلى إلى الأدنى ، وكان ملك نابليون يقوم على حق الشعب أو على صدور الحكم من الأدنى إلى الأعلى ،

ولكن لويس الرابع عشر إذا قال « أنا الدولة » مرة جاز لنابليون الأول أن يقولها مرتين لأن سلطان نابليون كان القوى وأوسع من سلطان لويس ومن ادعى مثل دعواه .

والغالب على المؤرخين أن يتكلموا عن الثورة وعن التغيير كأنهما لفظان مترادفان . مع أن الثورة حادث لابد منه والتغيير قد يأتى ببرنامج مقصود من نتائج الثورة أو من نتائج تغيير نظام الحكم بين ولاة الأمور .

وعلى هذا الأساس لا محل للبحث فى « ثمن الثورة » لأن البحث فى الثمن مساومة وموازنة بين الثمن وفائدة الصفقة للمشترى ، ولا مساومة هنا ولا موازنة بين الكفتين ، لأن الثمن قد يكون مبذولا مضى على بذله سنوات قبل اجتناء الثمرة منه وقبل حدوث التغيير الذى يلحق بالثورة عن تدبير أو عفواً بغير تدبير .

وصاحب الكتاب يعتقد أن الاستقرار بعيد من الجيل الحاضر ، وأن التوفيق بين المعسكرين المتقابلين فى القرن العشرين كالتوفيق بين رومة وقرطاجة كلاهما عسير وكلاهما حلم من أحلام الغافلين عن بواطن النزاع بين الخصمين ، وأن الدور المزدوج الذى يقوم به المعسكر الشرقى كالدور المزدوج الذى قام به فيليب الثانى الذى كان يعمل بصفتين : صفة العاهل الذى يحكم الدولة النمسوية وصفة الخليفة الدينى الذى يحمى

الكتلكة ، ولا يتأتى التفاهم مع خصم ذى صفتين لكل منهما ظاهر مكشوف وباطن مستور .

ومن رأى المؤلف أن الاستعمار قد لقى نداً قوياً من الحركات الوطنية ، وأن الحركات الوطنية تصاب بسمعة كسمعة الاستعمار إذا انقلبت إلى دعوة « عنصرية » تنكر حقوق العناصر المختلفة غلوا فى العصبية .

* * *

ويوشك أن تكون هذه الدراسات الثلاث عصارة البحوث التى لا تحصى فى موضوع الثورة كما أدركها أبناء القرن العشرين . وكل هذه الدراسات الثلاث تنظر فى الثورات الماضية لتخلص منها إلى حقائق الثورة الحاضرة ، فتكشف منها جملة من الغوامض التى بقيت وراء الحجب إلى زمن قريب .

إلا أننا نعبرها لنفرد بالقول دراسة واحدة تخصصت لثورة الأفكار فى العصر الحاضر ، وسلطت أضواءها الكاشفة كلها على هذا الهدف الواحد فلم تتركه لينكشف منه ما ينكشف مع الأهداف الأخرى التى تقع عليها تلك الأضواء .

هذه الدراسة القوية المخصصة لثورة القرن العشرين هى دراسة الفيلسوف الأسبانى أورتيجا اى جاسيت التى سماها ثورة الدهماء أو ثورة

الجماهير[1] وتجرد لبحثها من كل صبغة غير صبغة الفيلسوف الحكيم ، بعد أن تزود لها بزاد المعرفة والاطلاع الواسع و إعانته الحوادث بالتجربة بعد التجربة فى تاريخ وطنه الحديث .

* * *

إن الفيلسوف الأسبانى يكاد يحصر المشكلة كلها فى ازدياد السكان زيادة لم يسبق لها مثيل فى الأمم الأوربية قبل القرن التاسع عشر ، وهو ينظر إلى هذه الزيادة المضاعفة نظرتين فى وقت واحد : نظرة متفائلة ونظرة متشائمة أو حائرة .

يرى الفيلسوف أن هذه الزيادة حسنة من حسنات النظام الديمقراطى لاقترانه بتحرير الأفكار وتحسين أحوال المعيشة وقدرة العلم على مكافحة الأوبئة والأمراض وهداية الكثيرين إلى وسائل الوقاية الجديدة والعلاج الناجع .

فلم يحدث قبل أوائل القرن التاسع عشر أن زاد سكان القارة الأوربية عن مائة وثمانين مليوناً يعمرونها من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها بجميع أجناسها وأقوامها . ولكن هذا العدد قد ارتفع من سنة ١٨٠٠ إلى سنة ١٩١٤ أكثر من ضعفين فبلغ أربعمائة وستين مليوناً ولا تزال الزيادة فى اطراد .

---

(1) The Revolt of the Masses By Ortega y Gassxet

وقد جاءت هذه الزيادة بمشكلاتها فى مسائل الحكم ومسائل المعيشة ومسائل الآداب الاجتماعية ، ولم تجر زيادة التعليم المدرسي والاجتماعي على خطوات واحدة مع زيادة النفوس ، فكانت نتيجة ذلك جماح العلم وغلبة الحكمة على المزية ، واختلت موازين العرف المقرر ولم يأت بعده عرف « إيجابى » تقوم عليه علاقات المجتمع ومعاملاته ، بل كان العرف الجديد — أن صحت تسميته عرفاً — مقصوراً على المخالفة والتحلل من القيود عاجزاً عن مقابلة خلق بخلق وأدب بأدب وكياسة بكياسة كما كان يحدث فى أدوار الانتقال بين الأطوار الاجتماعية الماضية .

ويردد الفيلسوف أقوال القائلين بالأخلاق الجديدة والآداب الجديدة منكراً متحدياً سائلا من يعارضونه أن يذكروا قاعدة خلقية حلت محل الاحترام والرعاية فى مكان القواعد التى بطلت وفقدت من يحترمها ويرعاها بين سواد الناس فى العصر الحديث . فإنما الجديد كله هدم للقواعد وتحلل من القيود واجتراء على الحدود وإسقاط لكل واجب من واجبات الاحترام أو المجاملة .

وعلى قدر التفاؤل بالنظام الديمقراطى الذى كان له الفضل فى توفير عدد السكان يتشاءم الفيلسوف من النتيجة التى تفضى إليها هذه الوفرة إن لم تفلح فى إقامة القواعد « الإيجابية » لدعائم الأخلاق والمعاملات .

ويتفاءل الفيلسوف ويتشاءم أيضاً فى مسألة التقدم لأنها أصبحت مسألة آلية يعتقدها أنصار التقدم كما يعتقدون الأمر الواقع أو يعتقدون وصول القطار فى موعده ، وهذه العقيدة قد جعلت الحياة العصرية خلواً من الغرض خلواً من الحماسة للمستقبل الموعود ، لأن المستقبل الموعود — على هذا الاعتبار — حسبة أرقام وآلات مقدورة الحركات . وكأنما انقسم العالم إلى قسمين : أناس يأسون من التقدم وأناس مؤمنون به فى غير حماسة ولا نشوف ولا ارتقاب للطالع الجديد .

* * *

ولما توسع الفيلسوف الأسبانى فى بحثه ليفسر الثورة العصرية فى العالم بأسره كاد أن يذكر لها أسباباً مشابهة للثورة الأوربية ، وهى خروج الأمر من أيدى القلة إلى أيدى الكثرة .

فالأمم الكبرى فى القارة الأوربية كانت تحكم القارة وتحكم من ورائها أمم العالم الأسيوية والأفريقية ، وكانت هذه الأمم تهابها وتعترف بقوتها ورجحانها فى العلم والصناعة ، وظلت أوربة مشهوداً لها بالتفوق معترفاً لها بالقدرة على السلطان حتى ظهرت الحركات الوطنية ثم اشتعلت الحرب العالمية الأولى ، فضاعت مهابة أوربة وضاعت ثقتها بنفسها ، ووافق ذلك عجز أوربة عن حكم نفسها فاستحكمت فيها عوامل

الحيرة والفوضى وطاشت حركات الدول والشعوب فيها كأنها تسير إلى غير غرض وعلى غير هدى .

وجملة القول أن الثورة المصرية تتخبط ولا تستقر على قرار ، وأن ثورة الأخلاق فى القارة الأوربية لا ينبغى أن تفهم على أنها صراع بين ناموسين من نواميس العرف والأخلاق ، وإنما هى فى الواقع ثورة على كل ناموس ونزول بالمعانى الإنسانية إلى حضيض يشبه حضيض البهيمية التى تعتصم بقوة العدد والعضل ولا تدين بالاحترام لشىء غير القسوة والإكراه .

* * *

ونحن فى هذه المقدمة لا نستقصى ولا نفصل ، ولكننا نعرض الآراء عرضاً عابراً ونناقشها مناقشة سريعة بما يسمح به المقام من الإيجاز والإجمال .

والقول المجمل فى مذهب أورتيجا إى جاسيت أنه خير ما قرأناه من البحوث المخصصة لدراسة ثورة القرن العشرين فى القارة الأوربية ، ولكننا نتفاءل حيث يتشاءم ونحسب أن السيئات التى يشكوها مفهومة وأن مصيرها مفهوم كذلك لا موجب فيه للحيرة ، وإن لم يكن قد ثبت أمامنا الآن ثبوت اليقين .

إن اشتراك الجماهير فى شئون العالم نتيجة طبيعية لا بد منها ولا سبيل إلى اجتنابها ، بل لا داعية للبحث عن وسائل اجتنابها ، لأن السيئات التى اقترنت بها فى أوائلها كالسيئات التى تقترن بكل طور جديد فى أوائله ، وعلينا أن نسأل « أولا » : هل يكون هذا الاشتراك فى الشئون العامة أو لا يكون ؟ وإذا كان لا محالة واقعاً فى يوم من الأيام فهل الأفضل أن يجرى مجراه وأن يستوفى حظه من النمو والارتقاء أو الأفضل أن نتشاءم به ونمتعه ونود لو أمكننا أن نحول بينه و بين الظهور ؟

وعلينا أيضاً أن نسأل : هل من القضاء الحتم أن يبقى الجهلاء على جهلهم وغفلتهم عن مصالحهم وانقيادهم للمضللين بهم واعتمادهم على قوة العدد وقوة العضل دون غيرهما من القوى الاجتماعية والسياسية ؟

وهل من القضاء الحتم أن تبقى طوائف المجتمع من غير الجماهير مجردة من القوى الاجتماعية والسياسية التى تحفظ بها كيانها وتثبت وجودها وتذود عن مصالحها وحقوقها ؟

نشك فى ذلك ونلمح أمامنا بابين من أبواب الأمل لا داعية لليأس منهما ، لأن الوصول إليهما بحكم الضرورة والمصلحة والتطور الطبيعى أقرب من بقاء السيئات التى يتطير منها الفيلسوف الأسبانى ومن يرى مثل رأيه .

هذان البابان من أبواب الأمل أحدهما منتظر من الجماهير والآخر

منتظر من الطوائف الاجتماعية المتفرقة أو التى يتأتى مع الزمن أن تربط بينها رابطة موحدة .

فالجماهير خليقة أن تستفيد من التجربة وتعتبر بما يصيبها من جرائر العثرات والأخطاء وتترقى بارتقائها فى التعليم والتربية السياسية ، وتتفطن لعلاقات التضامن بينها و بين أجزاء المجتمع الأخرى ، فتتزن فى مواقفها وتكون عاملاً من عوامل التوازن بين أصحاب المصالح والحقوق فى الأمة الواحدة .

والطوائف الأخرى — ولا سيما طوائف الطبقة المتوسطة — خليقة أن تجمع شملها لتدفع عنها غائلة الضغط عليها من جوانب المجتمع العليا والدنيا ، وهى متى استطاعت ذلك تملك من عوامل التوازن قوة لا تملكها طائفة أخرى .

وسيكون الفشل الذى يصيب دعوات الهدم والعداء عوناً على تحقيق الأمل من جانب الجماهير وجانب الطوائف المتوسطة ، لأنه يحفظ لأعمال البناء والوئام قوى كبيرة كانت منقطعة لأعمال الهدم والشقاق .

أما الثورة العالمية فى العصر الحاضر فاسبابها — كما رأينا — شبيهة بأسباب الثورة الأوربية ، وهى خروج الأمم من القلة إلى الكثرة ، ونهوض الأمم الآسيوية والأفريقية للاستقلال بشؤنها بعد ولاية القارة الأوربية عليها .

وليس لهذه الثورة العالمية كما بدت إلى الآن عاقبة شر تخشاها الإنسانية على مصيرها ، لأن الأمم الآسيوية والأفريقية كلما أخذت بزمامها بين أيديها كبحت مطامع الأقوياء ، وكفكفت من غلواء التنافس والصراع بين أصحاب المطامع وأعانت على تقريب الوحدة العالمية وتغلبها على الأثرة العنصرية ، مع أضطرار الأقوياء والضعفاء جميعا إلى الأعتراف بروابط المصلحة المشتركة والحذر من القلاقل التى تحيق خسارتها بالأمم الميسرة والأمم المحرومة على السواء ، بل ربما كانت خسارتها على من يملك الثراء والقوة أكبر من خسارة المحدود فى ثرائه وقوته ، لأن خسارته قلما تزيد

وأيا كان الأثر الذى نجم حتى اليوم من زوال سلطان القله وتزعزع السيادة الأوربية فهو أهون من دوام ذلك السلطان ودوام المزعجات التى تتابعت على العالم من جراء حروبه ومنازعاته ودعاواه

* * *

ونعود فنقول أن هذه المقدمة لا تتسع للاستقصاء والفصل أو التفصيل وكل ما نريده منها أن نتعرف معنى الثورة كما تطورت فى القرن العشرين وأنها اليوم فكر أو شعور يسرى بين الجماعات الانسانية وليس قصاراها أنها حركة مادية لا تتعدى مكانها ولا يبالى أمثال لويس الرابع عشر أو لويس السادس عشر أن يشجعوها بين رعايا الدول الأخرى

والمقصد الطبيعي من كل مقدمة تُكتب لرسالة في الموضوع أن نرى ما أضافته هذه الرسالة لهذا البحث الجديد ، ونعرف ما هو السهم الذي اشترك به الدكتور ستون وتسن مؤلف الرسالة في تفسير الثورة العصرية وهو من ثقات هذا البحث المعدودين .

ونحسب أننا نجمل ذلك في كلمات وجيزة حين نقول أن عمله في هذا البحث أقرب إلى العلم منه إلى الفلسفة ، فهو في كلامه عن ثورة العصر يذكر الوقائع الماثلة أمامنا واقعة واقعة ولا يتكلف في تعليلها أن يغوص على الأسباب الجامعة التي يتحراها الفيلسوف قبل سواها ، ويكاد يقنع بدور العلم الوصفي ولا يدعي للعلم قدرة الجزم واليقين فإذا عرض المسائل الكبرى فهو يعرض لها — كما قال — ليثيرها ولا يعرض لها ليجيب عنها بجواب قاطع لعله وراء الطاقة العلمية والفلسفة معا في الآونة الحاضرة .

فلا نخال المؤلف قد أهمل سبباً من الأسباب التي اهتم بها الباحثون في أسرار ثورة القرن العشرين ، مبتدئا بمقدماتها القريبة منذ القرن الثامن عشر ومنتهيا إلى أحدث الأزمات العالمية والأزمات المحلية ذات الصبغة العالمية .

بدأ بثورة العقليين وثورة الصناعة الكبرى منذ القرن الثامن عشر واستطرد إلى أهم الأزمات في العصر الحاضر وهي إنقسام العالم إلى كتلتين

تعرف أحداهما باسم الكتلة الغربية والأخرى باسم الكتلة الشرقية ، ولكنه يرى — مع ضخامة هذه الأزمة أنها لا تستغرق مشكلات الكرة الأرضية فى المغرب والمشرق ، فلا تزال فى أنحاء الكرة الأرضية مشكلات مستقلة عن أزمة النزاع بين الكتلتين ، ومنها مشكلات الحدود بين الحكومات الناشئة ، ومشكلات المطالب القومية ، ومشكلات الطبقات ويخص منها طبقة أصحاب الأعمال وطبقة الديوانيين أو البيروقراطيين وطبقة العمال وطبقة الفلاحين ، وهو يضيف إلى مشكلة الطبقات مشكلة القوى الثورية أو القوى التى تجنح بدوافعها النفسية إلى تغيير الأحوال ولا تستريح إلى بقاء الحال على ما هى عليه .

ومن أهم أسباب الثورة العصرية عنده ضعف الايمان بالدين والقيم العليا ، ومعيشة الناس — روحيا — من يوم إلى يوم بغير أمل بعيد وبغير اطمئنان إلى الحاضر القريب .

والمؤلف لا يكتفى بسرد الأسباب كلما أمكنه أن يتجاوز السرد إلى التعليل المضمون فى حدود المعرفة العلمية والنتائج الملموسة

فهو لا يكتفى بسرد القوى الثورية دون أن يصحب ذلك بتصحيح الأقوال الشائعة عن أسبابها الاقتصادية ، فان الأسباب النفسية والسياسية لاتقل أثرا عن الأسباب الاقتصادية فى خلق بواعث الثورة أو محوها ، فالطبقة

العاملة فى البلاد الصناعية الكبرى لا تحسب من القوى الثورية خلافا لتقدير الاقتصاديين الماركسيين ، وهذه الطبقة العاملة فى فرنسا وإيطاليا لا تحسب من القوى الثورية إذا كان المقصود بالثورة قلب المجتمع رأسا على عقب ، لأنها تريد تحسين الأحوال ولا تريد قلبها ونقض قواعدها ، ومن ظن أن تحسين أحوال المعيشة يصلح لتفسير موقف الطبقة العاملة فى بلاد الصناعة الكبرى فهو — أى تحسين أحوال المعيشة — لا يصلح لتفسير موقف الفلاحين فى إيطاليا الجنوبية ، لأنهم على ما يعانونه من شظف العيش لا يحسبون من القوى الثورية التى تفهم من الثورة تخريب المجتمع وهدمه على أنقاضه .

ويرى المؤلف أن تقدم المجتمع فى الصناعة يخرج المجتمع من قبضة القوى الثائرة ويجعله موكولا إلى قوى كثيرة متوازنة بين التغيير والاستقرار . وهذا فى رأيه هو علة فشل الثوريين الهدامين فى ألمانيا بعد سقوط آل هوهنزلرن ونجاحهم فى روسيا بعد سقوط آل رومانوف ، فان تقدم الصناعة ينوع تشكيل الطبقات الاجتماعية ولا يترك المجتمع « تحت رحمة » طبقة واحدة ، ولكن المجتمعات التى تخلو من الصناعة الكبرى تنعزل فيها الطبقة الحاكمة فتزول — متى زالت — ولا تترك بعدها

فى المجتمع طبقة توازن الثورة التى يندفع دعائها إلى هدم المجتمع رأسا على عقب .

* * *

ونحن على تقديرنا للمنحى العلمى الذى سلكه المؤلف لا نحب أن نحرم المعنى الفلسفى من حقه فى البحث عن الاسباب العامة والفروض المحتملة ، وكلما خفيت هذه الاسباب العامة كان ذلك أدل على الحاجة إليها ولو من قبيل الفروض التى تتردد بين الشك واليقين إلى حين .

ولنضرب لذلك مثلا مسألة العدد التى اهتم بها الفيلسوف الاسبانى ولم يهتم بها كثيرا صاحب الرسالة القيمة

ترى هل كانت مشكلة الايدى العاملة تبلغ هـذا المبلغ فى القرن العشرين لو كان عدد الاوربيين مائتين وستين مليونا بدلا من أربعمائة وستين ؟ وهل كانت القوى الثورية تعادل القوى الثورية كما تعمل الآن فى العصر الحاضر ؟

ولسنا نعتقد أن مسألة العدد هى السبب المحيط وراء جميع الاسباب ولـكننا نشير إليها لانها سبب أعم من الاسباب الخاصة التى تتفرق بين المجتمعات والبيئات .

أما السبب المحيط بجميع الاسباب فى رأينـا فهو التحول من عزلة الامم إلى التضامن العالمى بين أبناء الـكرة الارضية .

فهذا التضامن الذى يثبت كل يوم بالمواصلات الجغرافية والتجارية لابد أن يتحقق مع الزمن فى مجال السياسة والأخلاق والشعور

وكثير من نكبات العالم وأزماته فى العصر الحاضر يوحى بالخوف من النكسة والادبار ، لولا هذا الاحتمال الوحيد الذى يوحى بالأمل فى التقدم من حالة مزعزعة لاتقيل الدوام إلى حالة تطرد وتستقيم فى طريق الدوام والارتقاء

هل يمكن أن نتصور أن العالم المتفرق يتحول إلى التضامن الإنسانى دون أن يتعثر ويتردد ويخطىء مرات بعد مرات فى المحاولة والتطبيق ؟ ليس هذا من الممكنات .

وما دام هذا هو الطريق الوحيد المعقول لتحقيق هذا التحول مع الزمن فلماذا ننفى من الذهن احتمال التقلقل والأضطراب فى سبيل التقدم ولا نرى احتمالا غير الخوف من النكسة والادبار .

لماذا ننفى فكرة التضامن العالمى مع أن الظواهر التى ثبتت من المواصلات الجغرافية والإقتصادية والعلمية كلها تتجه إليه ؟

إن العالم لايعيش اليوم على قاعدة التوازن الدولى التى عاش عليها فى القرنين الغابرين ، فإن التوازن الدولى بالأمس كان قوامه اتفاق الأقوياء ولا حساب لغيرهم من أمم العالم ، وكانت دولة واحدة تملك

السيطرة عليه كلما مالت إلى جانب من الجانبين ، وكانت خطة واحدة كخطة السلام البريطانى Pax Britannica كافية لتسيير سياسته العامة أو لكفلها عن السير حقبة من الزمن فى إتجاه معلوم

لكن هذا التوازن الدولى لا وجود له اليوم حتى فى هذا الانقسام بين الكتلتين الشرقية والغربيه ، فلا بريطانيا ولا أمريكا ولا روسيا تملك أن تعمل فيه على حدة ما كانت تملكه الدولة الواحدة قبل مائة سنة ولا سبيل إلى العزلة القديمه ولا إلى التوازن القديم . فالى أين السبيل إذن مع هذا التقارب العملى بين أجزاء العالم الإنسانى على اختيار من الدول أو على غير اختيار ؟

سبيل واحد تدل عليه جميع الظواهر ومنها الظاهرة الكبرى التى نسميها ثورة العصر ونفسرها بعض التفسير بهذه الرسالة المترجمه وبما نقدمه لها من تمهيد .

فهى ثورة يدعوها الغد إلى الأمام ولا يجذبها الأمس إلى الوراء ، وحسبنا أن نلمح هذا الاحتمال لنفرض على أنفسنا التفاءل الذى يقتضيه ، لانه يقتضينا عملا حثيثاً لا نعمله إن لم نكن متفائلين

وإننا لنقدم هذه الرسالة إلى قراء اللغة العربية ونرجو أن تخلص إليهم صحيحة واضحة من قلم مترجمها الفاضل الذى توفر على نقلها من اللغة الانجليزية ،

ولا حاجة إلى التعريف بمكانة الاستاذ « محمد رفعت » فى عالم الترجمة بين اللغتين ، فانه على خبرة وافية بتدريسها ومزاولتها فى نقل الوثائق والاسانيد التى تستلزم الدقة البالغة والامانة المتحرجة فى التعبير عن الكلمة ومعناها ، وعلى سنته قد سلك فى ترجمة هذه الرسالة مشكورا من طلاب هذه المباحث الجليلة التى لا غنى عنها لقراء العربية بين ظواهر العصر وخباياه ؟

عباس محمود العقاد